من أسرار التعبير القرآني

في سورة الشمس

إعداد

د/ عزة أحمد مهدي

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات – الاسكندرية

الله

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق, وإمام المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن إتبع هداه إلى يوم الدين وبعد.. فموضوع هذا البحث هو "من أسرار التعبير القرآني في سورة الشمس" وهى دراسة تحليلية لآيات سورة الشمس، في محاولة للربط بين حقائق العلم، وبلاغة التعبير القرآني في السورة، ثم علاقة الظواهر الكونية التي أقسم بها المولى – عز وجل – في أول السورة بالقسم الثاني من السورة وهو النفس الإنسانية كما سيتضح بعد.

وسورة الشمس مكية، تبلغ آياتها خمس عشرة آية، ونزلت بعد سورة القدر، وقد نزلت سورة القدر بعد سورة عبس، ونزلت سورة عبس فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة الشمس في ذلك التاريخ أيضا[١]

مقاصد السورة الكريمة:

يقصد من هذه السورة الترغيب في الطاعات، والتحذير من المعاصي، فهى في سياق الترغيب، والترهيب كسورة البلد، وهذا وجه المناسبة في ذكرها بعدها [٢]

(١) النظم الفني في القرآن ص ٣٥١ الشيخ عبدالمتعال الصعيدي – مكتبة الآداب – القاهرة.
(٢) المرجع السابق ص ٣٥١ ، والتفسير الكبير ج ١٨٨/٣١ للفخر الرازي، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٣٧/٣٠.

مناسبتها لما قبلها:

يقول صاحب نظم الدرر:

لما أثبت الحق جل وعلا في سورة البلد أن الإنسان في كبد، وختمها بأن من حاد عن سبيله كان في أنكد النكد، وهو النار المؤصدة، أقسم أول هذه السورة على أن الفاعل لذلك أولاً وآخراً هو الله سبحانه لأنه يحول بين المرء وقلبه وبين القلب ولبه، فقال مقسماً بمايدل على تمام علمه وشمول قدرته في الآفاق علويها وسفليها، والأنفس سعيدها وشقيها، وبدأ بالعالم العلوى، فأفاد ذلك قطعاً العلم بأنه الفاعل المختار، وعلى العلم بوجوب ذاته وكمال صفاته، وذلك أقصى درجات القوى النظرية، تذكيراً بعظائم آلائه، ليحمل على الاستغراق في شكر نعمائه، الذي هو منتهى كمالات القوى العملية، مع أن أول القسم به مذكر بما ختم آخر تلك من النار[1].

فضل سورة الشمس:

ذكر الزمخشري في الكشاف "عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدّق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر"[2]

وكان مما جذب إنتباهي، ووجه إهتمامي للبحث عن آيات سورة الشمس – في كتب التفسير، والمؤلفات العلمية التى تتحدث عن حقائق العلم– ماوجدته فيها

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٣٧/٣٠.

(٢) الكشاف ٢١٦/٤ للزمخشري ط دار المعرفة بيروت / لبنان، وذكره البيضاوى: "وقال الحافظ ابن حجر، رواه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب ﷺ تفسير البيضاوي المجلد الخامس ص ٥٠٠ – دار الأشراف.

من إشارات للظواهر الكونية، وبعض الحقائق العلمية ثم وصل هذا بالنفس الإنسانية، وبدأت أسأل نفسي: تُرى ما مدلول هذه الإشارات في القديم والحديث، وماعلاقة الكون بالنفس؟! وبدأت أبحث في هذا الإتجاه فقمت بتقسيم البحث إلى قسمين رئيسيين، وهما ظاهران في نظم السورة.

القسم الأول: يتحدث عن الظواهر الكونية ودلالاتها في القديم والحديث والذي يبدأ من الآية رقم (١) إلى الآية رقم (٦).

القسم الثاني: يتحدث عن النفس الإنسانية وخفاياها، وعلاقتها بالكون ويبدأ من الآية رقم (٧) إلى آخر السورة.

وقدَّمت لهذين القسمين بتمهيد – رأيته ضرورياً – وضحت جهد العلماء الذين تحدثوا عن حقائق العلم وتدبرهم لآيات الذكر الحكيم وإستنباطهم من منطوقه مايوحي بتلك الحقائق. وتلك محاولات جيدة، لإبراز جانب من جوانب الإعجاز القرآني وهو الإعجاز العلمي للقرآن.

وقد أستعنت في تحليلي البلاغي، والعلمي ببعض كتب التفسير مثل: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، والتفسير الكبير ومفاتح الغيب، للفخر الرازي ، وروح المعاني، للآلوسي والبحر المحيط،لابن كثير وتفسير القرآن العظيم، وتفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، والتفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب والكشاف، للزمخشري ، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعى، كما أعتمدت في التفسير العلمي للآيات الكونية على بعض المؤلفات الخاصة في هذا المجال مثل: مظاهر كونية في معالم قرآنية لمحمد محمود عبد الله (مدرس علوم القرآن بالأزهر)، والإشارات العلمية في

القرآن الكريم للمستشار مدحت حافظ ابراهيم، وإعجاز القرآن (القسم في القرآن الكريم)، ورؤية ميسرة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والتفسير العلمي لبعض آياته للدكتور جمال حسن إستشاري الأمراض الصدرية والباطنية وغيرها.

كما استعنت ببعض كتب اللغة والمعاجم مثل: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي ومقاييس اللغة لابن فارس، والصحاح للجوهري، وأساس البلاغة للزمخشري.

والله اسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه تعالى، ولخدمة العلم والدين وأن يفيد كما أفدت منه.

وما توفيقي إلا بالله

عليه توكلت وإليه أنيب

وإعزة أحمد مهري

مدرس البلاغة والنقد

ديسمبر ٢٠٠٢

تمهيد

يقول الله عزوجل في محكم تنزيله "وسخّر لكم الشمسَ والقمرَ دائبين وسخّر لكم الليلَ والنهارَ" ابرهيم ٣٣

ويقول جل ثناؤه "إنّ في إختلافِ الليلِ والنهار وماخلقَ اللهُ في السموات والأرض لاياتٍ لقومٍ يتقون" يونس ٦

ويقول جل وعلا "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" الذاريات ٢١

ويقول جل من قائل "الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان" الرحمن ١-٤

كل هذه الآيات الدالة،- وكثيرغيرها - تدعو الإنسان للتدبر، والتفكر في الكون، وفي النفس الإنسانية، وتحثه على الكشف عن غيبيات سمح له العليّ القدير بإكتشافها، فأعطاه مقومات الكشف من عقل راجح مفكر، ووسائل مناسبة يقينا بأن هذه الإكتشافات العلمية هى مايحتاجه أهل هذا العصر، لتوسيع رقعة الإسلام، وتأكيد معجزة القرآن الرسالة العامة الشاملة الخاتمة، بما وسعته من علوم مختلفة خالدة إلى قيام الساعة.

وقد كان يرجع إعجاز القرآن الكريم - في الماضي وإلى الآن- إلى اسلوب القرآن، ونظمه، وبلاغته متصلة أومنفصلة (بما في عباراته من حقيقة ومجاز، وفصاحة وبلاغة، وتشبيه وكناية، ومحسنات لفظية) وغير ذلك من الموضوعات التي تجعل الكلام يؤدي المعنى المراد منه في مقامه الخاص به، فيكون ليناً في بعض الآيات، وعنيفا قاصفاً في بعضها الآخر، كل ذلك ينساب في سلاسة وعذوبة إلى القلوب فيطهرها وينقيها، ويزيل عنها وحشة الجهل، والكفر فتضئ بذكره العقول، وتعمر بحفظه القلوب.

واليوم يتجه العالم إتجاهاً مادياً بحتاً، ينقبون في الكون لإكتشاف خفاياه فيظهر لكم في كل يوم إكتشاف عظيم، تحار البرية في كيفية خلقه وإبداعه، فمن فعل هذا؟ هل الصدفة .. أم الطبيعة؟ كما يذكر بعضهم أم هو الإله الواحد الذي يتحدث عنه المسلمون؟ فينكبّون على القرآن (المعجزة السماوية الخالدة) يدرسونه، ويبحثون وينقبون، فيتكشف لهم مايجعل بعضهم (من أراد الله بهم خيراً) يخرون سجداً، شاهدين بوحدانية الخالق، وبرسالة محمد ﷺ . حيث يجدون تفاصيل دقيقة لأسرار إكتشافاتهم، وأحياناً إشارات موحية تنبه على ضرورة البحث والتنقيب.

وبينما كان يفهم الناس – في زمن الرسول وبعده – من الآيات الكونية في القرآن أموراً مختلفة تختص بأحوالهم، وبيئتهم الصّحراوية، وماتدل عليه ألفاظ (الشمس، والقمر، والنهار، والليل،.....) وغيرها من مدلولات خاصة. نجد هذه الألفاظ ذاتها – الآن – يتجه إليها الناس بفهم وأسلوب مختلف، حيث يبحثون عن ماهية هذه الشياء، وكيفية حدوثها، بناء على دلالات معينة لم يتنبه لها الأقدمون. وتظهر "سورة الشمس" التي نتوقف عندها بالتحليل البلاغي والعلمي، جانباً من جوانب هذا الإعجاز، بماتدل عليه ألفاظها الكونية في القديم ، ومأأفاده منها علماء العصر الحديث، وبهذا يتضح الهدف من (القسَم) الذي أقسم به الحق تبارك وتعالى أكثر من خمس مرات في السورة، والذي يتلخص في تنبيه الغافلين إلى أهمية أقرب النجوم إلينا، وإلى روعة الإبداع الإلهي في خلقه، وماتدل عليه من صفات هذا الخالق العظيم، وأنه تعالى هو رب هذا الكون، وإلهه الأوحد.

وقد **نقل البيضاوي عن الفخر الرازي** قوله: واعلم أن الله تعالى ينبه عباده دائماً بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف

فيها ويشكر ربه عليها، لأن الذى يقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى. (١)

وبالرغم من الشواهد والإشارات العلمية الكثيرة في القرآن الكريم، فقد إختلفت الآراء حول الحديث عن قضايا الإعجاز العلمي في القرآن، فهناك من يدعو لمناقشتها، وبيانها للناس. وآخرون يرفضون الخوض فيها، بل ويطالبون بالتوقف عنها، مخافة اختلاط الأمور، واختلال الموازين الدقيقة، ولكل فريق أسبابه.

ويرى بعضهم أن هذا الموضوع بالغ الأهمية، وينبغي أن يكون البحث فيه مشاركة بين الراسخين في علوم القرآن الكريم، وبين علماء الفلك والكونيات مع التسليم بأن كتاب الله العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه، ولامن خلفه يحتوى على حقائق وإشارات علمية مبهرة للعقول والأفهام. (٢) وقد دلت عليها بعض آياته البينات بصورة بلاغية معجزة، حتى أن بعض العلماء يتجهون إليها محاولين الكشف عنها وتقديمها تقديماً علمياً، وهو ما أحاول تقديمه في هذا البحث بمشيئة الله.

ويتفهم المتخصصون في العلوم الكونية تخوف المعارضين لقضايا الإعجاز العلمي في القرآن، خوفاً من عدم ثبوت معطيات العلوم، وتغيرها مع الزمن، صوناً لكرامة القرآن من هذا التغيير.

---

(١) تفسير البيضاوى المجلد الخامس ص ٤٩٨

(٢) الإعجاز القرآني في كونيات الزراعة ص ٦ - د/صلاح الدين سيد أبوالعلا - مؤسسة دار الشعب ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

أما الفريق المؤيد فيرى أن القضية إذا تعامل معها المتخصصون بالضوابط الصحيحة فسيصبح هذا المجال من أهم مجالات الدعوة إلى الله في زمن حقق الإنسان فيه من الإلمام بأسرار هذا الكون مالم يتحقق له من قبل، وفي زمن فتن فيه الناس بالعلم، والتقنية ومعطياتها فتنة كبرى. (١)

وأكاد أجزم – والله أعلم – أن مايكتشفه العلماء في السنوات الأخيرة، ماهو إلاتأكيد لمعجزة القرآن الذي يحمل بين طياته – للمتدبر والمتأمل – أسلوب وطريقة فناء الكون التدريجي، حيث تنقص الأرض تدريجياً، (٢) وتتحرك الشمس في مسارها حتى يصل بها الأمر إلى الظهور من الغرب وليس من الشرق وهى إحدى علامات القيامة. وهكذا يكتشف الإنسان ذلك فيعلم أن الساعة قائمة لا محالة بالدليل العلمي القاطع الناطق بصدق القرآن، فعلى المرء أن يسرع بالتزود لآخرته. يقول تعالى "يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون" الرعد٢.

وأخيرا أقول : إن العلماء الذين فتشوا عن هذه المعطيات العلمية الدقيقة واكتشفوها، لم يعرفوا القرآن أولاً ثم حاولوا إثبات مافيه، بل حدث عكس ذلك حيث تم الإكتشاف ثم تبين تفصيله في القرآن بأسلوب بلاغي رائع، ومعانٍ دقيقة واضحة.

كما أن هؤلاء العلماء (ومعظمهم من غير المسلمين) لاتعنيهم الكلمات والألفاظ بهذا النظم وهذه الصياغة (فهم ليسوا أهل فصاحة ولابيان)، ولذلك حملت دقة الصياغة بين طياتها من الحقائق العلمية، والإشارات الدلالية مايوجه نظر

(١) المرجع السابق.
(٢) أثبت العلم الحديث أن الأرض تنقص تدريجياً متجهة نحو الفناء والإنتهاء وسيأتي تفصيله في البحث بمشيئة الله.

الباحثين، والعلماء إلى ضرورة البحث والتنقيب في هذا الكون الشاسع، حتى يصل بهم الأمر إلى معرفة الخالق تبارك وتعالى، وهذا أسلوب الإقناع لهؤلاء حيث يقول تعالى "قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تُغني الآيات والنُذر عن قوم لايؤمنون" يونس ١٠١ .

فالآية الكريمة تأمر بالنظر في موضوعات العلوم الكونية، وتطلب السير والسعي في الأرض طلباً للاستزاده في العلم، فإذا إكتشفوا إعجازه العلمي عرفوا أهمية نظمه على تلك الصورة.

إن رجال الدين دائما يرددون عدم تعارض الدين مع العلم، فكيف يتأكد ذلك بأسلوب عملي علمي، وكيف يكون القرآن معجزاً في كل زمان ومكان بينما يقصر عن الإتيان ببعض الإشارات، والدلائل عن حقائق علمية سيتم إكتشافها. ولم يلتفتوا إليها إلا بعد كشفهم لها فيكون حجة عليهم، بل نجد العكس من ذلك، فالقرآن يعبر عن أدق التفاصيل لحقائق علمية بأسلوب شديد اليسر، سريع الإقناع، لاتكلف فيه ولاغرابة ولاتبذل ولاتعقيد. يفهمه العامي، واللغوي، والبلاغي، والفلكي، والفيزيقي، والكيميائي وغيرهم كل بطريقته التى يسر له الله تعالى فهمها، ليحصل في النهاية مانسعى جميعاً لتأكيده على مر الأزمان وهو إعجازه المطلق إلى قيام الساعة. وهذه عظمة القرآن. فالقرآن كتاب حافل بالنبوءات ومن هذه النبوءات ماتحقق في وقته ومنها ماهو في إنتظار ميعاده.[1]

[1] القرآن محاولة لفهم عصري ص ٢٣٨ د/مصطفى محمود.

(٩١) سورة الشمس مكية
وآياتها ١٥ نزلت بعد القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ
إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ
وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ
عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

الظواهر الكونية ومدلولاتها:

يقبل النظم القرآنى في أسلوب متفرد بديع على قارئه وسامعه بحسن إبتداء، وبراعة استهلال، يجذب إنتباههم بما يرسله من موسيقى خارجية، فيتجه إلى الكلام بجميع حواسه لوعيه وإدراكه. يقول تعالى: "والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها". مستخدماً القسم بالواو في مطلع السورة، وهى أكثر أدوات القسم إستخداماً كما ذكر سيبويه في كتابه(١)

وقد استخدم النظم القرآني القسم في خمس عشرة سورة (٢) . وعنيت د/ عائشة عبدالرحمن بالقسم بالواو خاصة، فوجدت أن القسم بها في مستهل السور جاء مع السور المكية فقط ، ولم تأتِ سورة مدنية مبدوءة بهذه الواو. كما وصفت القسم القرآني في أوائل السور بأنه ظاهرة أسلوبية أخرى من البيان المعجز. (٣)

ولفضل القسم ودلالته في تأكيد المعنى وإظهار جدته، ذكر الدكتور/حسين نصار في كتابه "القسم القرآن" فصلاً لبعض مافي القسم من أبواب البلاغة ولطائفها وقال فيه(٤) إن في أسلوب القسم معاني مفيدة للإستدلال، مما يفتح عليه من البلاغة أبواباً، ويلقى عليه من المحاسن جلباباً وذكر منها:

١- إظهار التأكيد والجد في القول. كما ترى في قول المرسلين إلى أصحاب القرية حيث ورد في القرآن ذلك في سورة يس "قالوا ربنا يعلم إنا إليكم

---

(١) الكتاب ٤٩٦/٣ ، ٢١٧/٤

(٢) الإتقان في علوم القرآن ١٠٦/٢ للسيوطي ت ٩١١هـ - دار الندوة الجديدة بيروت / لبنان

(٣) الإعجاز في تفسير القرآن ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ د/ عائشة عبد الرحمن.

(٤) القسم في القرآن الكريم ص ١١٣ د.حسين نصار - عميد كلية الآداب جامعة القاهرة سابقاً - مكتبة الثقافة الدينية ط الأولى ١٤٢١ هـ/٢٠٠١م

لمرسلون وماعلينا إلا البلاغ المبين" يس ١٦ ولذلك كثر القسم في أوائل عهد النبوة حتى تبين لهم جدّه.

٢- كون القسم إنشاء، وذلك يبهم طريق الإنكار على الخصم، فإنه - إن شاء - أنكر جواب القسم لكونه خبراً، ولكنه لايسنح له أن ينكر القسم نفسه لكونه إنشاء (ولعل هذا من أسرار مجيء القسم في أوائل السور المكية لمراعاة مقتضى هذه الأحوال).

٣- إيجاز هذا اللفظ للإستدلال؛ فإن اللفظ إذا قلّ يتراءى المعنى متجرداً عن حُجبه، فيزيده تنويراً وتأثيراً، كأنه أرهف حده، وقُرِّب بعده.

٤- إشراك السامع في إستنباط الدليل، وذلك ممايكسرّ سَورة (حدَّه)خصامه. فإنه إذا علم شيئاً بعد التأمل فرح به. وأهتَّز له. وترى ذلك بيِّناً في أقسام القرآن، فإنها تعرض على السامع أمراً يدعوه إلى إستعمال عقله، وربما تسوقه إلى سَمت الدعوى بلطافه وتدريج.

وهنا تظهر المناسبة واضحة بين القسم والمقسَم به، حيث إنها أمور تحتاج إلى إعمال العقل، وكثرة التأمل، حتى يصل بعقله إلى حقيقة مؤكدة هى وحدانية الخالق جل شأنه.

٥- وضع الدليل في غير صورته كيلا يُبادر المنكر إلى المخاصمة، لأن ذلك يذهله عن الخصام.

٦- ما أعطت أوائل السور من نضرة بهجتها، ورونق ديباجتها، إذ تلمع الأقسام في قسمات السور- على الأكثر - كالغرة البيضاء. أما الذي جاء في أثناء السور من الأقسام فقليل، ومثاله كالتصريع في أثناء القصيدة، وقد اصطفى القرآن له كل ماإنْ صُوِّر على عنوان الكتاب أوتمثّل للفعل في مطلع الخطاب

ملأ العين والفؤاد بحسنه وجلالته. بل يجل أكثرها عن التصوير لكمال عظمتها، وضيق نطاق الخيال عن سعتها.

٧- تقديم ذكر الدليل على ذكر الدعوى. فيلقى أولاً على الخصم أمراً يوجهه إلى سَمْت لابد أن يجلبه إلى الدعوى. فإن المنكر- إذا علم من قبل ماتريد الإستدلال عليه- أخذ سمتاً (جهة) آخر، وتتكب عن الوجه الصحيح. فإذا لم تذكر الدعوى أولاً، يوشك أن يتوجه إلى صراط مستقيم. فإذا سار على قصد السبيل قُدْته إلى آخر النتيجة.

٨- كون القسم من جوامع الكلم. وهذا يمكن دمجه مع الفضيلة الثالثة التى تذكر إيجاز لفظه.

وبالتأمل الدقيق في النقاط الثمانية السابقة نجدها تنطبق تماماً على مايؤدهِ القسم . في سورة الشمس من معان عميقة، ودلالات قوية، وإعجاز بلاغي بديع. وكلها تخدم التحليل البلاغي في السورة. بينما قصرها ابن عاشور على التأكيد فيقول: القسم لتأكيد الخبر والمقصود بالتأكيد هو مافي سوق الخبر من التعريض بالتهديد، والوعيد بالإستئصال [1] وهذا أحد الجوانب البلاغية الهامة التى لايمكن إغفالها، بيد أن مادُكر سابقا من فوائد جليلة للقسم هى من ثراء الأسلوب القرآني وتذهب بلب المرء وفكره إلى أمد بعيد، يواجه به المنكر فيدحض أفكاره وآراءه فيسلم من أقصر طريق.

والمقسم به أولاً في السورة :

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٦٦

"**الشمس**" وهى مؤنثة، تصغيرها شمسية أما الشَّمس بمعنى القلادة في عُنُق الكلب فهو مذكر وتصغيره شميس. (١)

والشمس – كلفظ وكائن – معروف منذ القدم، ومِنَ الناس مَنْ يتخذها معبوداً، وحين يقسم بها الحق في كتبه العزيز فهى جزء رئيسي من البيئة والكون المحيط بالناس – في ذلك الوقت – لمافيها من منافع جمة لعامة الخلق، فهى الضياء الذي يضيء الكون نصف اليوم، ومنها تستمد الكائنات طاقتها الحرارية، ولاشئ يعرفونه سوى ذلك. وكلها أمور هامة تستحق أن يُقسم بها على قدر علم الناس في الماضي.

ثم أقسم الله تعالى بـ "**ضحاها**" وضحى الشمس ذكر فيه المفسرون(٢) ثلاثة أقوال أحدها : هو النهار كله، والثاني : جوهر الشمس، والثالث : هو نور الشمس على وجه الأرض. وأصح الأقوال هو القول بأنه النهار كله أوضوؤها، وذلك لأن الضحى في كتب اللغة (٣) تعنى : بروز الشيء. فمنه الضحاء : إمتداد النهار، وذلك هو الوقت البارز المنكشف: يقال ضحى الرجل يضْحَى إذا تعرض للشمس ..

(١) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ٩٥ لإمام اللغة والأدب ابن خالويه ت ٣٧٠هـ مكتبة المتنبي – القاهرة.
(٢) التفسير الكبير ١٨٩/٣١ للفخر الرازي.
(٣) مقاييس اللغة ٣٩١/٣ لابن فارس – تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون – مطبعة الحلبي بالقاهرة.

ولأن القسم في القرآن الكريم إما لفضيلة، وإما لمنفعة [١] ، فقد ذكر الفخر الرازي: أنه تعالى إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ماتعلق بها من المصالح، فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل،فلما ظهر أثر الصبح في المشرق صار ذلك كالصور الذي ينفخ قوة الحياة، فصار الأموات أحياء، ولاتزال تلك الحياه في الإزدياد والقوة والتكامل، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها. [٢]

هذه الأمور يتبادر ظهورها لأذهان العامة حين يذكر القسم والمقسم به.. ولكن ماذا يفهم منه المحدثون والعلماء، وإلام يتجه فكرهم حين تذكر ذات الألفاظ؟ بتقدم العلم، وبفضل العقل الذي منحه الله للإنسان، وفضّله به على سائر مخلوقاته تمكن الإنسان من معرفة فائدة أشعة الشمس التى ترسلها، لتدفئة الكائنات وإضاءة الكون، فحين تسقط على مياه البحار والأنهار والمحيطات، يتبخر جزء منها صاعداً إلى السماء فما تلبث أن تتحول قطرات البخار إلى كتل سحاب في جو السماء، فيصرفها الحق ويرسلها كيف يشاء[٣]

وهذه نظرة أولية تبين تدرج العلم مع تقدم الزمن. إذن ..مارأي العلم الحديث والإكتشافات المثيرة لهذا الكوكب الرائع الذي فضله الله تعالى، فأقسم به أولا في سورة خاصة به ؟

أثبت علم الفلك الحديث أن الشمس هى الكوكب الرئيسي الذى يضيء

(١) مظاهر كونية في معالم قرآنية ص ١٤٢ – محمد محمود عبد الله – مدرس علوم القرآن بالأزهر – مؤسسة الخليج العربي للطباعة والنشر.
(٢) التفسير الكبير ١٨٩/٣١
(٣) مظاهر كونية في معالم قرآنية ص ١٤٢

العالم، وتعتبر النجم الأوسط بالنسبة للنجوم الأخرى، وعمر الشمس حوالى ٧٥٠٠ مليون سنة، وتبعد عن الأرض بمقدار ١٤٩٥٩٧٩٠٠ كم، وأقصى بعد لها عن الأرض ١٥٢ مليون كم ووزنها ٣٣٠٠٠ مرة أثقل من وزن الأرض، وقطرها ١٣٩٢٦٤٠ كم، وتحرق ٤ مليون طن هيدروجين في الثانية ، وجملة ماتحتويه من هذا الغاز يكفى لتبقى ملتهبة مدة ١٥٠٠ سنة أخرى. أما حرارتها الداخلية فتبلغ ١٤ مليون درجة وحرارتها المرئية ٦٠٠٠ درجة. ويستغرق سرعة ضوئها ٨ دقائق ونصف كي يصل إلى الأرض [١] وقد ذلل الله تعالى هذا النجم المشع الساطع بطاقته الهائلة لمصالح العباد ولضبط حركة الحياه على الأرض، وبدون هذه الطاقة الشمسية تستحيل الحياة على كوكبنا، لأن كلاً من النبات والحيوان، والإنسان يعتمد في وجوده – بعد إرادة الله الخالق سبحانه – على قدر الطاقة التى تصله من أشعة الشمس، كذلك فإن كل الظواهر الفطرية [٢] التى تحدث على الأرض ومن حولها تعتمد على الطاقة القادمة إلينا من الشمس. كما أن الله (تعالى) قد أعطى الشجر الأخضر القدرة على تخزين جزء من طاقة الشمس على هيئة عدد من الروابط الكيميائية التى تمثل المصدر الرئيسي لكل أنواع الطاقة الحرارية والضوئية والكهربائية والكيميائية مثل الحطب، والقش والخشب، وكلا من الفحم النباتي والحجرى، والنفط، والغاز الطبيعي، والزيوت والدهون النباتية

(١) مظاهر كونية في معالم قرآنية ص ١٤٥ محمد محمود عبد الله.

(٢) كتصريف الرياح، وإرسال السحاب، وإنزال المطر، وبقية دورة الماء حول الأرض، ومايصاحب ذلك من تسوية وتمهيد لسطح الأرض، وشق للفجاج والسبل فيها، وتفجير للأنهار والجداول من حجارتها، وخزن الماء تحت سطح الأرض .... وغير ذلك من عمليات وظواهر تحركها طاقة الشمس بإرادة الله تعالى – راجع : جريدة الأهرام ص ١٢ عدد ٤٢٣٠١ بتاريخ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٢ د. زغلول الجار.

والحيوانية وكلها ترجع إلى الطاقة الشمسية [١] وقد شاءت إرادة الله أن يحمي الحياة على سطح الأرض بعدد من نطق الحماية التى لعبت أشعة الشمس – ولاتزال – الدور الأول في تكوينها – بعد إرادة الله تعالى– وأولها من الخارج إلى الداخل : النطاق المغناطيسى للأرض. وأحزمة الإشعاع. والنطاق المتأين، ونطاق الأوزون، وهذه النطق تتعاون في حماية الأرض من كل من الأشعة فوق البنفسجية والكونية، ومن العديد من الجسيمات الكونية الدقيقة والكبيرة والتى منها النيازك والشهب، ولولا وجود هذه النطق لاستحالت الحياة على الأرض.

ولولا وجود الشمس ماتكونت تلك النطق أصلاً، فوجودها صورة من صور التسخير التى لم تكن معروفة في زمن الوحي بالقرآن الكريم، ولابعد قرون متطاولة بعد نزوله حتى نهايات القرن العشرين.

والآن .. ماعلاقة ذلك بالقسم بهذا النجم الكبير في القرآن الكريم؟ إنها بلاغة القرآن التى حار أمامها الفصحاء، وعجزوا عن مجاراتها، فهى تحمل إشارات علمية رامزة تدعو للتأمل والتفكر في أمر الشمس من جميع الجوانب التى أتاحها لهم العلي القدير جل شأنه.

حيث يقول	"والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره	الأعراف ٥٤
ويقول تعالى	" هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا"	يونس ٥
ويقول تعالى	"وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى"	الرعد ٢
ويقول تعالى	وسخر لكم الشمس والقمر دائبين"	ابراهيم ٣٣
ويقول تعالى	"الشمس والقمر بحسبان"	الرحمن ٥
ويقول تعالى	"لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر" ولا الليل سابق النهار"	يس ٤٠

(١) المرجع السابق.

ثم تأمل قوله جل ثناؤه مذكرا بالعبرة والغرض من كل هذه الدلائل التي ينبغي البحث عنها وتدبرها للاعتبار ومنبهاً على أنها من آياته "**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا القمر واسجدوا لله الذي خلقهن**" فصلت ٣٧.

ويكرر النظم القرآني القسم متدرجاً من مصدر الضوء إلى تابعه فيقول تعالى معقباً : "**والقمر إذا تلاها**".

والقمر في أصل اللغة يدل على بياض في شئ، ومن ذلك قمر السماء، سُمى قمراً لبياضه[١]. وهذا يفسر قول الحق تبارك وتعالى "**هو الذي جعل الشمس ضياءاً والقمر نوراً** " يونس ٥ . فالنور أقل حِدَّة من الضياء، ويوحي بالبياض في داخله، بينما يوحي الضوء بقوة الوهج وشدته وهو الموجود في الشمس.

والقمر يُجمع على أقمار، وهو ذلك الجرم السماوي الذي يدور حول أرضنا، ويستمد نوره من الشمس.

يقول صاحب نظم الدرر: ولما أفتتح بذكر آية النهار، أتبعه ذكر آية الليل فقال: "والقمر" : أي المكتسب من نورها، كما أن أنوار النفوس من أنوار العقول[٢].

---

(١) مقاييس اللغة ٢٥/٥ لابن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون ط الثانية مطبعة الحلبي.
(٢) نظم الدرر ٤٣٧/٣٠.

وحين يقسم الله تعالى بـ (القمر) يجمع بين الشئ ونقيضه، بين ما يضئ الكون نهاراً، وماينيره ليلاً، ويرتبط هذا في الذهن بالنهار الذي جعله الله تعالى زمنا للسعي والعمل إبتغاء فضل الله، ومايتطلب هذا من نشاط زائد يستشعره المرء من ضوء الشمس وحرارتها. بينما جعل الليل سكنا وسكينة، وزمناً للراحة والهدوء لاستعادة النشاط مرة أخرى. يقول المولى جل وعلا: "**وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً**" الفرقان ٤٧.

والقمر يدور حول نفسه كل شهر قمري، ولذلك فإن اليوم القمري طويل حيث تتلظى أي نقطة على سطحه بضوء الشمس أسبوعين كاملين، فترتفع درجة حرارته إلى ما يقرب من مائة درجة مئوية عند أحد نصفي السطح المواجه للشمس، بينما تصل إلى مائة درجة مئوية تحت الصفر في النصف الآخر(١). هذا فضلا عما اكتشفه العلماء فيما بعد من أن القمر وسيلة من وسائل إتمام عمليتي المد والجزر، وهما قوتان من قوى الأرض يعملان على تفتيت صخور الشواطئ وتكوين أنواع عديدة من الرسوبيات، والصخور الرسوبية على طول الشواطئ، كما تعملان على تركيز العديد من الثروات المعدنية في رمالها. هذا فضلا عن تحديد الشهر القمري بدورة القمر حول الأرض ، وتسخير أطوار شكل القمر لتقسيم الشهر إلى أسابيع وأيام، وإضاءة سماء الأرض بمجرد غياب الشمس وبالرغم من الاكتشافات التي دلت على أن سطح القمر معتم تماماً فقد أعطاه الله تعالى القدرة على عكس جزء من أشعة الشمس الساقطة عليه وقدّرت بـ ٣ر٧٪ وبذلك ينير سماء الأرض بمجرد غياب الشمس، وذلك بمراحله المتتالية من الهلال

(١) الكون والإعجاز العلمي في القرآن ص ٢٥٦ د/ منصور محمد حسب النبي - دار الفكر العربي ط الثالثة.

الوليد، إلى ميلاد الهلال الجديد(١).

ويذكر د/ النجار: من الشواهد الحسية على حتمية فناء كل من الشمس والقمر بقوله: "جاءت الإشارات القرآنية إلى تسخير كل من الشمس والقمر وإلى جريهما "إلى أجل مسمى" أو لأجل مسمى" في أربعة مواضع من القرآن الكريم"(٢).

قوله "تلاها" فعل ماضٍ و"ها" مفعول به،تعود على الشمس، وهو من تلا يتلو تُلوًا فهو تالٍ أي تابع(٣).

والسر في التعبير بلفظ "تلاها" في هذا الموضع دلالته بلاغية علمية تنبه لها المفسرون في الماضي على سبيل الإجمال، ثم وضحها وأكدها العلم الحديث في الحاضر.

فدلالته البلاغية تظهر في معنى اللفظ، ومايطابق به الواقع، فالتالي هو التابع وبالنظر المجرد في الكون نلاحظ القمر يتلو الشمس، فنقول يتلو الليل النهار، وهو يتلوه ويتبعه في الإنارة، وفيها تصوير ضمني – تصوير القمر بالإنابة عن الشمس في إنارة الكون في زمن معين – وهو يتلوه ويتبعه في الإنارة – وذلك في إحدى منازل القمر (البدر) فالشمس بذلك أكمل إستدارة وأتم – وهو تصوير آخر ضمني، وبعيد يحتاج إلى إعمال الفكر وتدقيق النظر. يقول أبوالسعود: "والقمر إذا تلاها" بأن طلع بعد غروبها، وقيل : إذا

---

(١) جريدة الأهرام ص ١٢ عدد ٤٢٣٠١ بتاريخ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٢

(٢) المرجع السابق ، والمواضع المذكورة في سورة الرعد ٢ ، وفاطر ١٣، الزمر ٥ ، لقمان ٢٩.

(٣) إعراب ثلاثين سورة من القرآن ص ٩٦ لابن خالويه. ومقاييس اللغة ٣٥١/١ لابن فارس تحقيق عبد السلام محمد هارون . ط الثانية.

تلا طلوعه طلوعها، وقيل إذا تلاها في الاستدارة وكمال النور" [١] ويلعب البديع دوراً بارزاً في إحداث جرس موسيقي بيِّن (ضحاها، وتلاها) ينساب في سهولة متسللاً إلى الآذان فينبه العقل، ثم يسري المعنى ليوقظ القلب وينيره. وهذا من السجع القصير الذي يستمر من أول السورة إلى آخرها.

وقد تنبه المفسرون إلى ظواهر فلكية يمكن ملاحظتها في التعبير بـ "والقمر إذا تلاها" حيث ذكر **الرازي ، وأبوحيان، والآلوسي** وجوه في (تلاها) لبعض العلماء هى[٢]:

١- بقاء القمر طالعاً عند غروب الشمس وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس، فإذا القمر يتبعها في الإضاءة، وهو قول عطاء عن ابن عباس.

٢- بإعتبار طلوعه وغروبها أى إذا تلا طلوعه غروبها، وذلك ليلة البدر رابع عشر الشهر فإنه حينئذ في مقابلة الشمس، والبعد بينهما نصف دور الفلك، فإذا كانت في النصف الفوقاني منه أعني مايلي رءوسنا كان القمر في التحتاني منه أي مايلي أقدامنا، فإذا غربت طلع من الأفق الشرقي. رواه الآلوسي عن قتادة والكلبي.

٣- المراد من هذا التلو هو أن القمر يأخذ الضوء من الشمس يقال فلان يتبع فلاناً في كذا أي يأخذ منه وهو قول الحسن والفراء.

---

(١) تفسير أبوالسعود المسمى إرشاد العقل السليم ٢٦٥/٥ المطبعة المصرية ط الأولى ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

(٢) التفسير الكبير ١٨٩/٣١ ، والبحر المحيط ٤٧٨/٧، وروح المعني ٥٢١/١٨ ، ٥٢٢.

وذكر الآلوسي: أنه أُنكر بعض الناس ذهاب أحد من السلف إلى أن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس، وزعم أنه رأي المنجمين لاغير، ويَرد عليه بقوله: إن ماذكر حجة عليه، والحجة عن أصل المسألة أظهر من الشمس، وهى إختلاف تشكلاته النورية قرباً وبعداً منها مع ذهاب نوره عند حيلولة الأرض بينه وبينها، وكون الإختلاف على محوره حركة وضعية حتى يرى كل نصف منهما تدريجياً، وكون ذهاب النور عند الحيلولة لإحتمال حيلولة جسم كثيف بيننا وبينه، لاتراه أضعف من حبال القمر كما لايخفى. وقد أكد العلم الحديث هذه الظاهرة وفصلها بصورة علمية.

٤- أنه يتلوها في كبر الجرم بحسب الحس، وفيَ إرتباط مصالح هذا العالم بحركته، ولقد ظهر في علم النجوم أن بينهما من المناسبة ماليس بين الشمس وغيرها.

هذا رأي المفسرين، وعلماء الفلك في الماضي، والذي يدل على تدرج العقل البشري في العلم، لمناسبة الحاضر ومواكبة التطور المستمر في جميع مناحي الحياة.

إذن .. فما رأي علماء العصر الحديث في قوله تعالى: "والقمر إذا تلاها" وكيف يستنبطون إعجاز القرآن منها؟

لما أثبت علم الفلك الحديث أن الشمس مصدر ضوئي وحراري هام للحياة على الأرض، عرفوا أن القمر جسم معتم تماماً، وأن نوره منبثق من ضوء الشمس وهو فرع والشمس أصل لأنه يستنير بتأثير أشعتها كما ذكرنا قبل ذلك.

وهو في دورته يتجه بأحد وجهيه إليها وبالثاني للأرض، فهما يسبحان في دورة فلكية منتظمة بدقة مابعدها دقة فيقول المولى جل ثناؤه "**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون**"[١] . يس ٤٠. وهذا يتفق مع علماء التفسير في الماضي.

كما أثبت العلماء أن الشمس عندما تكون في وضع عمودي بالنسبة لسطح القمر، فإن الدرجة القصوى له تبلغ عند خط الإستواء القمري ٢ر١١٧ درجة، وتنخفض عن هذه الدرجة بعد مغيب الشمس، حتى تصل إلى ٧ر١٦٢ درجة في منتصف الليل[٢] وبهذا يكون ضوؤه أقل تبعاً لقلة حرارته.

كل هذه الألفاظ بدلالاتها البلاغية والعلمية تؤكد قيمة التعبير القرآني المعجز في كل زمان إلى قيام الساعة. وتأكيد العلم في بعض الآيات، يناسب جماعة من الناس في زمن مختلف عن زمن نزول القرآن والوحي، مما يؤكد عدم التعارض بين الدين والعلم، أوبين اللغة والعلم، حيث تؤدي اللغة بنظمها المعين معنى يثبت بعد ذلك علمياً أنه النظم الأمثل، لترتيب حدوثه في الكون على هذه الصورة الدقيقة.. فأي إعجاز هذا ؟! سبحان الله عما يشركون.

ولما ذكر جل ثناؤه آيتي "الشمس والقمر" ذكر الآثار المترتبة على دوران الأرض حول نفسها مرة كل يوم أمام الشمس فقال تعالى مقسما:

---

(١) رؤية ميسرة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والتفسير العلمي لبعض آياته ص ١٠٣ د/جمال حسن إستشاري الأمراض الصدرية والباطنة، ومظاهر كونية في معالم قرآنيةص ١٦٨.

(٢) المرجع السابق.

"والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها"

يقول صاحب نظم الدرر :

وبدأ بهما أي (الشمس والقمر)، لأنه لاصلاح له إلا بهما، كما أنه لاصلاح للبدن إلا بالنفس والعقل. [١] فالقسم بالنهار في هذه السورة كحالة من الحالات الدالة على دقيق نظام الكون، وللمناسبة بين الشمس، وبين أثرها.

ولصاحب التحرير والتنوير رأي في هذا الترتيب حيث يقول : "وإبتدئ بالشمس لمناسبة المقام، إيماء للتنويه بالإسلام، لأن هديه كنور الشمس، لايترك للضلال مسلكاً، وفيه إشارة إلىّ الوعد بإنتشاره في العالم كإنتشار نور الشمس في الأفق، واتبع بالقمر، لأنه ينير في الظلام كما أنار الإسلام في إبتداء ظهوره ظلمة الشرك، ثم ذكر النهار والليل معه، لأنهما مَثَل لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك، وذلك عكس مافي سورة الليل (التالية لهذه السورة) ثم يقول: وقيد القسم بالنهار بقيد وقت التجلية إدماجاً للمنة في القسم[٢].وهذا رأي بعيد، وفيه تكلف واضح لتأويل الآية وتوجيهها.

والنهار لغة : ضد الليل، وهو نصف اليوم الذي تشرق فيه الشمس، ويعرف بالفترة الزمنية بين طلوع الشمس وغروبها. وهى كلمة تدل على الاتساع، لاتساع ضوئه، والنهار ظاهرة ضوئية تنشأ عن سلوك الضوء نفسه الذي أودع الله فيه خصائص عجيبة، فالضوء نفسه لايمكن رؤيته بذاته، ولكننا نراه بإنعكاسه وتشتته على المرئيات. ولهذا ذكروا أن النهار هو ضوء الشمس

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٣٨/٣٠
(٢) التحرير والتنوير ٣٦٧/٣٠

الذي ينعكس ويتشتت بواسطة الغلاف الجوي حيث يصطدم الضوء أثناء إختراقه لجو الأرض بجزيئات الغازات المكونة للهواء وبخار الماء، والجسيمات الترابيةالعالقة بالجو فيحدث مايسميه العلماء "تشتت الضوء" (١)

وقد أقسم الحق تبارك وتعالى بالنهار وقت التجلية فقال تعالى **"والنهار إذا جلاها"** أي الوقت الذي تتجلى فيه الشمس عما يحدث لضوئها من تشتت في الغلاف الجوي. وذكر التجلية بعد النهار دعوة مباشرة للتفكر في هذه الحقيقة العلمية وكيفية حدوثها، وسبب إختيار "جلاّها" دون غيره من الألفاظ.

فـ "جلى" مادة تدل على الإنكشاف والبروز في الشئ (٢) ، والمراد جلى النهار الشمس أي أظهرها، فإنها تتجلى، وتظهر إذا انبسط النهار ومضى منه مدة(٣) وإسناد التجلية إلى النهار مجاز عقلي (٤) ، لأن الفاعل الحقيقي للتجلية هو الله عزوجل، وإنما كان النهار زمانها.

وفي الكشاف: الضمير للظلمة أوللدنيا أولـلأرض، وإن لم يجر لها ذكر، كقولهم أصبحت باردة يريدون الغداة، وأرسلت يريدون السماء (٥) . فاختلف في مرجع الضمير في جلاّها، وقد حسم العلم الخلاف في هذا الأمر

(١) الكون والإعجاز العلمي في القرآن ص ٢٢٣ د/منصور محمد حسب النبي.
(٢) مقاييس اللغة ٤٦٨/٣
(٣) روح المعاني ٥٢٢/١٨
(٤) التحرير والتنوير ٤٦٧/٣٠
(٥) الكشاف ٢١٤/٤٠

فرجعه إلى الشمس كما يفهم من ظاهر سياق الآية. [١] وقد كانت هذه الآية وحدها كافية لإقامة الحجة والدليل على أهل هذا الزمان الذي تحكمه المادة، والتفكير العلمي المادي للإيمان بالأشياء، لأن القرآن معجزة كل العصور، فهو كلام الخالق العليم الحكيم القادر، المقتدر، وقد حفظه بحفظه وإرادته وقدرته بنفس اللغة التى نزل بها، لتكون اللغة نفسها إعجازاً بماتدل عليه من جوامع الكلم، لتفيد كل عصر بما يناسبه ومايقيم عليه الحجة للإيمان.

فقد تبين للعلم الحديث أن النهار فعلا هو الذي يجلي الشمس، فعندما يدخل ضوء الشمس إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، فإنه يتعرض للعديد من عمليات الإنعكاس والتشتت، فيعطي لكل من السحاب، والشمس والسماء والبحر لونه الخاص به. وهذا معناه أن النهار هو الذي يجلي لنا الشمس أي يجعلها واضحة جلية لأحاسيس المشاهدين لها من أهل الأرض، وليس الشمس هى التي تجلي لنا النهار كما كان يعتقد الناس عبر التاريخ حتى بدأت رحلات الفضاء في منتصف الستينات من القرن العشرين[٢].

وقد تم هذا الإكتشاف في حينه ووقته، حين إحتاج العالم لفهمه وإستيعابه، وحين إحتاج أن يدرك السر وراء هذا الضمير الذي يعود في ظاهره إلى الشمس فكانت اللغة القرآنية ونظمها سبباً في معرفة دقة إعجاز القرآن فيما يُعبر، لأن ذلك يؤدي أحياناً إلى حقيقة علمية غائبة، وتدرك في

(١) في ظلال القرآن ٣٩١٦/٦
(٢) دوريات : الأهرام ص ١٢ عدد رقم ٤٢٢٥٢ بتاريخ ١٢ أغسطس ٢٠٠٢ م السنة ١٢٧.

وقتها، ودائماً تؤدي إلى إعجاز بلاغي، يعجز أفصح البشر عن الإتيان بمثله.

فسبحان الذي أنزل هذه الآية المعجزة، بهذا النظم المعجز.

وكما طابق القرآن الكريم في الآيتين المتقدمتين بين "الشمس والقمر" يطابق ثانياً بين "النهار والليل "فذكر النهار أولاً ثم قال تعالى مقسماً : "**والليل إذا يغشاها**" مستخدماً واو القسم للمرة الرابعة في هذه السورة، للتأكيد على ضرورة التدبر والتأمل في كل لفظ على حده، ثم مايختص به من صفة ترتبط إرتباطاً وثيقاً بموضوع السورة.

والليل: إسم جنس يفرق بين واحده وجمعه تاء التأنيث فيقال ليلة وليل، ولايصح جمعه، ولذلك خطأ الناس من زعم أن الليالي جمع ليل، بل الليالي جمع ليلة، وهو جمع غريب.(١)

والليل هو نصف اليوم الآخر الذي يبدأ من غروب الشمس حتى شروقها في اليوم التالي وهو زمن الراحة والهدوء يقول جل وعلا : "وهو الذي جعل لكم الليل لباسا، والنوم سباتاً" الفرقان ٤٧ ويقول تعالى "ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا" النمل ٨٦. وفي الليل يعظم التسبيح والتهجد والتنفل والإستغفار، حيث يصعب الإستيقاظ.

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٥٣/١ أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. تحقيق د/أحمد محمد الخراط ط الأولى ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م.

﴿ ١١٠٠ ﴾

يقول تعالى "**قم الليل إلا قليلا . نصفه أو أنقص منه قليلا**" المزمل ٣،٢ ويقول تعالى "**وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل**" هود ١١٤ ويقول تعالى: "**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**" الإسراء ٧٩ .

هذا الليل الذي يغمر الكرة الأرضية ويحيط بها من جميع جوانبها كأنه لباس لها هذا الليل الذي هو من أفضل أوقات التعبد والتأمل والتضرع والدعاء قربة إلى الله تعالى ورغبة في رضاه. هذا الليل يذكره النظم القرآني في حالة خاصة بهذه السورة وهى التغشية.

والتغشية: تغطية شئ بشئ[١]، والغشاء: الغطاء، وهذا يناسب الليل، كما يقول سيد قطب: "والليل غشاء يضم كل شئ ويخفيه" [٢]. وإسناد التغشية إلى الليل مجاز عقلي لعلاقة الزمانية أوالمسببيه. فالليل لايغطي الشمس حقيقة ولكنه مسبب عن غشي نصف الكرة الأرضية لقرص الشمس ابتداء من وقت الغروب، وهو زمن لذلك الغشي.. والغاشي في الحقيقة هو تكوير الأرض ودورانها تجاه مظهر الشمس وهى الدورة اليومية [٣]. وهذه حقيقة علمية أكدها علماء العصر الحديث. (سيأتي ذكرها بعد ....).

والضمير في "يغشاها" عائد علىالشمس، فالليل يغشى الشمس بدخوله حيث تغيب وتظلم الآفاق، وقيل الضمير عائد على الأرض[٤].

---

(١) مقاييس اللغة ٤٢٥/٤
(٢) في ظلال القرآن ٣٩١٦/٦
(٣) التحرير والتنوير ٣٦٨/٣٠
(٤) البحر المحيط ٤٧٨/٣٠

ويقول أبو حيان: والذي تقتضيه الفصاحة أن الضمائر كلها إلى قوله يغشاها عائدة على الشمس، وكما أن النهار جلاها، كان الليل هو الذي يغشاها"[١]. كما ذكر أن الفاصلة مرتبة علىألف وهاء المؤنث، ولذلك جاء بالمضارع في "يغشاها" لأنه الذي ترتب فيه، ولو أتى بالماضي كالذي قبله وبعده – في غير القرآن – كان يكون التركيب، إذا غشيها، فتفوت الفاصلة وهى مقصودة [٢].

وقال الآلوسي: "وقال بعض الأجلّة جيء بالمضارع للتنبيه على إستواء الأزمنة عنده تعالى شأنه"[٣]. وتقييد القسم بالليل بوقت تغشيته تذكيراً بالعبرة بحدوث حالة الظلمة بعد حالة النور[٤] .

و"إذا" في الآيات السابقة في محل نصب على الظرفية متعلقة بـ كون هو حال من القمر، ومن النهار، ومن الليل فهو ظرف مستقر، أي مقسماً بكل واحد من هذه الثلاثة في الحالة الدالة على أعظم أحواله وأشدها دلالة على عظيم صنع الله تعالى[٥].

هذا .. والليل أصل والنهار طارئ، وذلك، لأن ظلمة السماء في الغلاف الجوي حقيقة علمية ذكرها القرآن قديماً، ولم يكتشفها العلماء إلا في

(١) المرجع السابق /٤٧٨
(٢) المرجع السابق .
(٣) روح المعني ٥٢٣/٨
(٤) التحرير والتنوير ٣٦٨/٣٠
(٥) المرجع السابق.

العصر الحديث، حيث يقول جل ثناؤه : "**فالق الإصباح وجعل الليل سكناً**" الأنعام ٩٦.

وفي محاولة لتفسير السبب العلمي في ظلمة الكون، ونور طبقة النهار المحدودة بحدود نصف الأرض المواجهة للشمس، وبسُمك لايتعدى المائتي كيلومتر، اتضح علمياً أن الغالبية العظمى من أشعة الشمس هى أشعة غير مرئية، وأن الجزء المرئي منها لايُرى إلا بعد إنعكاسه، وتشتته لمرات عديدة على عدد من الأجسام من مثل جزيئات العناصر والمركبات المكونة للطبقة الدُنيا من الغلاف الغازي للأرض، ومابها من هباءات الغبار، وقطيرات الماء وبخاره. (١)

ولما كان الغلاف الغازي للأرض تتضاءل كثافته بالإرتفاع حتى لاتكاد تُدَرك كما يتضاءل محتواه من هباءات الغبار والرطوبة بصفة عامة، توقفت عمليات تشتيت ضوء الشمس وعكسه على المائتي كيلومتر السفلى من هذا الغلاف الغازي فقط، والتي لايرى فيها نور النهار، وبقى الكون في ظلام دامس، وبقى موقع الشمس على هيئة قرص أزرق وسط الظلام، كما بقيت مواقع النجوم نقاطاً زرقاء باهتة في بحر غامر من ظلمة الكون الشاملة. (٢)

هذا وغيره من التحليلات والتفسيرات والحقائق العلمية التي وردت لها إشارات في القرآن، لم يدركها الإنسان إلا بعد غزو الفضاء، ومحاولة تعرُّف

---

(١) جريدة الأهرام مقال من أسرار القرآن ص ١٢ عدد رقم ٤٢٢٥٢ السنة ١٢٧ بتاريخ ١٢ أغسطس ٢٠٠٢م

(٢) المرجع السابق.

خفاياه مما سمح لهم المولى جل ثناؤه بمعرفته، ليتوصل بها إلى وحدانية الخالق، وإعجاز القرآن، ورسالة محمد ﷺ، وقيام الساعة.

يقول الحق جل وعلا "أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها" النازعات ٢٧

فللسماء علاقة وثيقة بكل ماسبق ذكره في السورة، فهى محل كل ذلك، وهي التي يُنظر إليها فنرى الشمس، والقمر، ونرى النهار والليل، لذلك قال تعالى بعد ذلك:

"**والسماء بناها**" وهو القسَم الخامس في السورة، ولابد أن يلفت الإنتباه إلى المقسم به، ووجه العلاقة بين ماقبله، ومابعده.

السماء كلمة تدل على السمو والإرتفاع والعلو تقول سموت وسميت مثل علوت وعليت، وسما الشيء سمواً فهو سام ارتفع، وسما به وأسماه أعلاه [١]

ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبة حيثما إتجهنا تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها.

وهذا ما أصطلح الفلكيون قديماً عليه، فالسماء عندهم هى تلك القبة الزرقاء المثبت فيها الكواكب والنجوم. [٢]

أما حقيقة السماء وكيفية ثباته وتماسكه، فلاتتناثر أجزاؤه وهو سابح في الفضاء فلا ندري عن ذلك شيئاً، وإنما نوقن أنها إرادة الله وقدرته، حيث

(١) لسان العرب مادة سما
(٢) دائرة معارف القرن العشروين ٣٠٥/٥ دار المعرفة / بيروت ط الثالثة ١٩٧١

يقول تعالى: "إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده" فاطر ٤١.

ولذلك عرفها الفلكيون المحدثون بأنها " الفضاء الذي فوقنا مما لايحده التصور وتسبح فيه الكواكب سبحاً بلاممسك لها إلا قدرة الله"(١)

أو هي كل مايحيط بالأرض من جميع أقطارها ابتداء من الغلاف الجوي الذي يرتفع بنحو ثلاثمائة كيلومتر فوق سطح الأرض، وكأنه بحر من الهواء حول الكرة الأرضية.(٢)

ويذكر د/موسى الخطيب : أن المرء لايستطيع أن يرفع بصره نحو السموات العلا إلا ويغض إجلالاً ووقاراً، إذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة، ويراقب سيرها في أفلاكها وتنقلها في أبراجها".(٣)

وبناء السماء تشبيه لرفعها فوق الأرض بالبناء، والسماء آفاق الكواكب قال تعالى "ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق" المؤمنون ١٧ – وكما نعرف فإن النجوم أجرام سماوية مثل الشمس، وهى ظواهر فيزيقية مختلفة، وأسهل مايمكن مشاهدته من هذه الأجرام هى ظاهرة إنتاج الضوء، فتلك أجرام لها بريقها الخاص بها. قال تعالى: " إنا زينا السماء الدنيا بزينة

(١) مع الله في السماء ص ٣٠/ أحمد زكي حسين.
(٢) الإعجاز العلمي في الإسلام ص ٥٨ محمد كامل عبد الصمد. الدار المصرية اللبنانية ط الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٣م..
(٣) من دلائل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية ص ٢٨٢ د/موسى الخطيب مؤسسة العربي.

الكواكب" الصافات ٦.

فالوصف للسماء الدنيا، وبنائها هذا البناء المحكم الذي ركب فيه ماذكره إشارة إلى ماوراءه مما يعجز الوصف.(١)

والواقع أن القرآن الكريم قد ذكر حقائق علمية هامة لم يتم إكتشافها إلا في القرون القليلة الأخيرة، ومن ذلك أن السماء كانت في بدء خلق الكون دخاناً يقول تعالى: "**ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أوكرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم**" فصلت ١١،١٢ والعلم يقرر ذلك بعد أبحاثه المضنية في هذا الصدد فيقول العالم الفلكي "جيمس جينز" : الراجح أن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء بإنتظام وأن السدائم(٢) خلقت من تكاثف هذا الغاز"(٣).

وكذلك قال الدكتور جامبو: "إن الكون كان مملوءاً بغاز موزع توزيعاً منتظماً. ومن هذا الغاز حدثت عمليات التحول النووي في مختلف العناصر. قرر العلماء ذلك قبل أن يعرفوا ماورد في القرآن ذكره، فلم يحاولوا إثبات ماجاء في القرآن، بل إكتشفوا ثم تنبهوا أن القرآن قررها حقيقة علمية منذ أكثر من

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٣٩/٣٠

(٢) جمع سديم وهى السحب أوالمجرات التي نشأت فيها السماء والأرض – (الإعجاز العلمي في الإسلام ص ٥٩ – محمد كامل عبد الصمد.

(٣) المرجع السابق.

أربعة عشر قرناً، لتكون شاهداً على نبوة محمد النبي الأمي، وعلى إعجاز رسالته الخاتمة، إنه الإعجاز العلمي الذي أقسم به القرآن الكريم الذي نزل على رسوله الصادق الأمين ﷺ (١).

و(ما) في قوله تعالى : "والسماء ومابناها" لها ثلاثة أوجه:

الأول : أن تكون مصدرية ، وتقديره : وبنائها.

الثاني : أن تكون بمعنى (الذي) وتقديره : والذي بناها.

الثالث : أن تكون بمعنى (مَنْ) وتقديره : ومَنْ بناها.

وقد جاءت (ما) بمعنى (مَنْ) ، فإنه حكى،عن أهل الحجاز أنهم يقولون للرعد: سبحان ماسبحت له، أي : سبحان مَنْ سبحت له. وهو قول لأهل النضير.(٢)

واختار الزمخشري والآلوسي أن تكون موصولة بمعنى (مَنْ) وقال : وإنما أوثرت على (مَنْ) ، لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل والسماء والقادر العظيم الذي بناها(٣).

وذكر الآلوسي: أن المراد بالبناء هنا الإيجاد، بحيث تدل على ذلك ويستدل بها عليه، وهو أولى من تفسيره ببانيها لإشعاره بالمراد من البناء. (٤)

(١) المرجع السابق ص ٥٩
(٢) البيان في غريب إعراب القرآن ٥١٦/٢ تأليف أبوالبركات بن الانباري. تحقيق د/طه عبد الحميد مراجعة مصطفى السقا ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.
(٣) الكشاف ٢١٥/٤ ، روح المعاني ٥٢٤/١٨
(٤) روح المعاني ٥٢٤/٨

ولما ذكر النظم القرآني السماء وبناءها الذي يدل على الإرتفاع والعلو، أتى بما يقابلها في الإنخفاض والدنو، وهى مقابلة ثنائية تظهر الصورة كاملة في ذهن الملتقى، فيشعر بالإحاطة بمافوقه وماتحته.

فقال تعالى: "والأرض وماطحاها" قسماً سادساً بإحدى دلائل عظمة الخالق. وإنما جاء تقديم السماء على **الأرض** في معظم آيات القرآن الكريم لقوله تعالى: "**والأرض بعد ذلك دحاها**" فهو ترتيب طبعي ومخالفته سر لابد من كشفه، والذي يرجع في معظم الأحيان إلى بلاغة المقام والحال.

و"طحى" في كتب اللغة تدل على البسط والمد[1] وهو كالدحو حيث يقول تعالى في موضع آخر: "والأرض بعد ذلك دحاها" النازعات ٣٠ وهى أيضاً تفيد ذلك المكان الذي نعيش عليه ونفترشه، ونزرع أرضه ونحصد زرعه، ونشرب ماءه ونستخرج طعامه وكنوزه من بحاره، والمعادن من باطنه، وعلى الرغم من ذلك نجهل منه الكثير. وهذه الأرض هى أقرب المخلوقات إلينا، والتي لايزال العلم حائراً فيما يكتشف إلى الآن من مكنونات هذه الأرض التي مهدها الله ووطأها للإنسان كما قال في سورة البقرة: (فِراشا) يفترشها ويستقر عليها، وكأنها بيته، بل كأنها نفس فراشه الذي يضطجع عليه ويجد فيه راحته، وماليس مهيأ منها لأول الأمر كي يكون فراشاً يستطيع أن يجعله فراشاً كالكوخ يتخذه فوق الجبل، وكالفلك يتخذها في البحر.

(١) مقاييس اللغة ٣/٤٤٥

وقد أمده الله في هذه الأرض بالمياه، والينابيع والأنهار والمعادن الصلبة والسائلة، والجواهر المتعددة، والحيوانات والطيور والنباتات والأشجار كل هذا وغيره الكثير، ممايدل على قدرة الله وسيطرته على هذا الكون التي خلقت اليابس والرطوبة والحرارة والبرودة، وعناصر الأرض كلها من التراب والماء والنار والهواء، كما خلقت العذوبة والملوحة والطعوم الغازية والرياحين والأصوات المطربة، والألوان الممتعة، كل ذلك جعله الله للإنسان يشعر به ويعرفه، ويدعوه لتأمله وتدبره حتى يظل طول حياته عابداً شاكراً، ساجداً لله وحده لاشريك له [1].

كان هذا مايسره الله تعالى للإنسان البسيط العامي بحيث يستطيع إدراكه بحواسه المجردة مع إعمال فكره وعقله، بينما إحتفظت الأرض بأسرار لأولئك الذين ينكرون وجود الإله، أويعددون الآلهة حتى يكون حجة عليهم بمالايدع مجالاً للشك فيه، فبعد قرون عدَّة يقرر العلم أن الأرض كانت جزءاً من الشمس ثم انفصلت عنها، وهى على صورة غازية ملتهبة ثم أخذت تبرد شيئاً فشيئاً، فنتج عن ذلك تجمد السطح الخارجي الذي أخذ يزداد سمكا.. وفي هذه الفترة كانت الغازات والأبخرة تتصاعد من الأرض لتتساقط عليها مرة أخرى على هيئة المطر فكان تكوين الماء بعد خلق الأرض ونزول الماء مع الأمطار، وتفجره من الينابيع، وجدت التربة الصالحة التى ينمو فيها النبات ويترعرع. وهذا ماقرره القرآن في قوله تعالى: "**والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها**" النازعات ٣٠-٣٢.

(١) سورة الرحمن وسور قصار ص ٣٢٩ د/ شوقي ضيف.

وتوضح المعاجم اللغوية أن كلمة (دحاها) تعنى أنه تعالى جعلها كالدحية [١]أي كالبيضة منبعجة، وقد أوضحت الصور التى سجلتها آلات التصوير[٢] في أثناء رحلات الأقمار الصناعية في الفضاء أن شكل الأرض الحقيقي مستديرا، وهذا يطابق ماتدل عليه البراهين النظرية والعلمية. ويلاحظ أن لفظ "دحا، يدل على شيئين هما البسط والإتساع في المكان، والتكوير في الشكل، وهذه روعة النظم القرآني في التعبير الدقيق عن أمور دقيقة، لم يتبينها العلماء. إلا منذ قرون قريبة مضت.

ومما يثبت كروية الأرض – أيضاً – فى القرآن الكريم، قوله تعالى: "رب المشرقين ورب المغربين" الرحمن ١٧ فقد أكد العلم الحديث[٣] أن الأرض إذا كانت منبسطة، لوجب أن يكون على سطحها. شروق واحد وغروب واحد، فتنير الشمس كامل سطحها حين تشرق ويحتجب النور عن كامل سطحها حين تغرب، ولأن الأرض كروية فإن الشمس حين تشرق تنير الجهة الشرقية منها فقط، وتظل الجهة الغربية منها محجوبة عن النور فى حالة الظلمة، ويجرى العكس حين تشرق الشمس على الجهة الغربية منها، وهذا الأمر لا يتأتى إلا من كروية الشكل للأرض.

---

(١) الأدحية، الأدحوه : بيض النعام أومكان بيضه، ويكون عادة مستدير الشكل لسان العرب ومقاييس اللغة مادة دحو.

(٢) أكدت بعض الكتب العلمية أن بكليموس (١٠٠-١٧٠بعد الميلاد) جمع الأدلة التى تعطي الإنطباع بأن الأرش كروية، ولم يستطع احد رؤية الشكل الكروى للأرض إلا عندما بدأ عصر الفضاء عام ١٩٥٨. من دلائل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية ص ٢٤٦ د/موسى الخطيب. مؤسسة الخليج العربي.

(٣) تأملات فى خلق السماوات والأرض ص ٥٥ د/ أشرف فوزى - كلية العلوم – جامعة الزقازيق / دار الكتاب الحديث.

وإن ما أثبتـه القـرآن عـن الشـكل الكـروى لـلأرض بالآيـة السـابقة لـم يكتشفه العلماء إلا أخـيراً. فهـذه وغيرهـا حقـائق لا تثير العجـب ولا الدهشـة، ولكن العجيب المدهش حقاً هو ذكر هذه الحقائق منذ أكثر من ألـف وأربعمائـة عام فى الكتاب العزيز حينما كانت هذه الفكرة وأمثالها بعيدة عن الفكر البشرى ولم تظهر مؤخراً[١].

كما أكد العلم الحديث أن الكرة الأرضيـة كالبيضـة وهـى الدحيـة بلغـة أهل العرب فى الجزيرة العربية ليس من حيث الشـكل الكـروى فقـط، بـل مـن حيث التكوين أيضاً لطبقاتها وتعددها؛ فالبيضة – كما نعلم جميعاً – لهـا قشـرة رقيقة متماسكة، ثم يليها غلاف رقيق يفصل القشرة عن الأح (بيـاض البيضـة) الذى له السمك الأكبر للبيضة. ثم المح (صفار البيضة).

كذلك الأرض لها عدة نطاقات داخلية بعد القشرة الصلبة. فلها نطاق ضعيف يسمى الأسثينوسفير، وهو جزء من الوشاح (الأح) أو اللب أو السكارة، وكلهـا أسماء للجزء الداخلى فى البيضة الذى يحتضن النواة، وبدورها تنقسم إلى نـواة داخلية ونواة خارجية[٢].

وبعد ذلك أرى أن لفـظ (طحـى) لا يـرادف (دحـى) كمـا ذكـرت كتـب اللغة والتفسير فالطحو مد واتساع، والدحو اتساع مع تكويـر فـالدحو أعـم مـن الطحو، والمراد من قوله تعالى: "والأرض مددناهـا" ق٧ المعنـى الأعـم (المـد مع التكوير) – (والله أعلم) وقد ذكر د/موسى الخطيـب فـي كتابـه أن الأرض تبدو ممتـدة امتـداداً فسيحاً يوحـى بانبسـاطها واسـتوائها، ولكـن كلمـة مددناهـا

(١) المرجع السابق، وانظر الإعجاز العلمى فى الإسلام ص ٧٨ وما بعدها.
(٢) تأملات فى خلق السماوات والأرض. ص ١٢١/د/ أشرف فوزى عبد السلام البارودى.

تعطى المفهوم الكروى؛ لأنك إذا مشيت على الأرض فإنك لن تصل إلى نهايتها، ولو كانت مستوية لما استخدم النظم القرآنى لفظ (مددناها) فى هذا الموضع[١].

وهكذا ينتهى الجزء الأول من سورة الشمس، والتى تشير إشارات موحية إلى ظواهر كونية ينبغى الالتفات إليها، وتعهدها بالكشف والاهتمام لما لها من عظيم الأثر على النفس الإنسانية بصفة خاصة ونعلى جميع الكائنات والمخلوقات بصفة عامة.

ثم يأتى المقطع الثانى والأخير من السورة، والذى يتحدث عن حقيقة النفس الإنسانية، واستعدادها الفطرى، ودور الإنسان فى شأن نفسه، وتبعته فى مصيرها، هذه الحقيقة يربطها النظم القرآنى بحقائق الكون ومشاهده الثابتة فى تناغم تام، يظهر فيه حسن التخلص رائعاً ليصل فى النهاية إلى المغزى والعبرة من هذا كله.

النفس الإنسانية وخفاياها:

أول ما يلفت النظر فى الآيات الكريمة هو الفصل الواضح بين موضعى السورة حيث يتجه النظم القرآنى اتجاهاً مباشراً من الحديث عن الكون ومظاهره المختلفة إلى الحديث عن النفس، وأول ما يتبادر إلى الذهن هو استفهام عن وجه العلاقة بينهما، (بين النفس، والأقسام الستة المتطابقة والمتقابلة فى الآيات السابقة)، فللقرآن نظمه المعجز الذى ترتبط فيه الألفاظ

(١) من دلائل الاعجاز العلمى فى القرآن والسنة ص ٢٤٦.

بالمعانى ارتباطاً وثيقاً، وتترابط الألفاظ وتنتظم حتى تشكل عقداً فريداً، تحار البرية فى كيفية نظمه على هذا الوجه.

ونفى تأمله لهذه العلاقة يقول عبد الكريم الخطيب[1]: "وإذ نبحث عن مقابل النفس لا نجد هذا المقابل الذى يستدعيه سياق النظم فى ظاهره.. فإذا أمعنا النظر قليلاً، نجد أن النفس تضم فى كيانها شيئين متقابلين: هما الفجور والتقوى، أو إن شئت فقل الشمس والقمر، أو النهار والليل، أو السماء والأرض؛ ففى كيان النفس نور وظلام، ونهار وليل، وعلو وسفل، فإذا تعمقنا النظر وجدنا الشمس تمثل العقل، والقمر يمثل الضمير الذى تستضئ بصيرته من العقل، كما يستمد القمر نوره من الشمس، وللعقل شروق وغروب، فإذا اتجه إلى الحق أسفر عن وجهه وكان نهاراً مبصراً، يتحرك الإنسان فيه على هدى وبصيره، وإذا اتجه إلى الباطل غربت شمسه، وأطبق ليله، وعَميت على صاحبه السبل، ودرست معالمها. ثم إذا أخذ الإنسان طريق الحق اتجه صُعُداً نحو معالم النور، فكان أقرب إلى عالم السماء منه إلى عالم الأرض، أما إذا ركب مركب الضلال، فإنه يهبط منحدراً حتى تغوص أقدامه فى التراب، وقد يتدنى حتى يكون حشرة من حشرات الأرض، أو دودة من ديدانها.

ويذكر البقاعى توجيهاً مختلفاً متأملاً فى علاقة الكون بالنفس، فيرى أن كل ما سبق ذكره فى السورة من مظاهر الكون هو إشارة إلى ما فى سعى الإنسان من أمثال هذا. يقول: "قال أهل البصائر: وليس فى العالم الآفاقى شئ إلا وفى العالم النفسانى نظيره، وأنشدوا فى ذلك:

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وتستنكر

(١) التفسير القرآن للقرآن المجلد الثامن ص ١٥٨٣/ عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر العربى.

وتحسب أنك جرم صغير ∴ وفيك انطوى العالم الأكبر

فالسماوات سبع كطباق الرأس التى تتعلق بالقوى المعنوية والحسية كالذاكرة والحافظة، والواهمة، والمخيلة، والمفكرة والحس المشترك، وما هو لمقاسم البصر فى العين، ونظير الشمس. الروح فى إشراقه وحسنه، ونظير الليل الطبع؛ فإن ما به من نور فإنما هو من الروح، كما أن الليل كذلك لا يكون نوره إلا من الشمس بواسطة إفادتها للقمر المنير والكواكب، ونظير النهار – الذى هو نير فى أصله، ومتكدر بما يخيل له من السحب ونحوه – القلب وسحبه الشكوك والأوهام النفسية، ونظير القمر فى ظلمته بأصله وإنارته بالشمس النفس، فإن أكسبها القلب المستفيد من الروح النور أنار جميع البدن، وإذا أظلمت أظلم كله، والأعضاء الباطنة كالكواكب يقوم بها البدن فينير له الوجود بواسطة الروح والنفس، والأمطار كالدمع، والحر كالحزن، والبرد كالسرور، والرعد كالنطق والبرق كالملح، والرياح كالنفس إلى غير ذلك من البدائع للمتأمل.

وهكذا تأتى الإشارات فى القرآن الكريم، لأهل البصائر تدعوهم إلى تدبر ألفاظه وتأمل معانيه وماوراءها؛ للوصول إلى الغاية.

فإذا ما اتجهنا إلى التحليل البلاغى لأجزاء الصورة التى رسمتها آيات النص القرآنى للإنسان من داخل نفسه واجهنا القسم فى قوله تعالى: "ونفس وما سواها" وهو تشريف للنفس، وجذب الانتباه إليها للتأمل فى مكنونها، والربط بينه وبين مكنون الكون وظواهره المختلفة، وفي القسم بالنفس ثم بالتسوية وهى الصفة التي قام عليها القسم مزيد من التكريم والتشريف للمقسم به.

(نفس) اسم جنس، لدلالة ما بعده عليه من قوله تعالى "فألهمها فجورها ..." [١] ولتنكير النفس وجهان ذكرهما الزمخشرى: أحدهما أن يريد نفساً خاصة من النفوس وهى نفس آدم عليه السلام كأنه قال: وواحدة من النفوس.

والثانى أنها للجنس أي كل نفس للتكثير على الطريقة المذكورة فى قوله تعالى "علمت نفس ما قدمت وأخرت" **وهذا هو المختار** لأن قوله تعالى "**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**" يقتضى التغاير فى المزكى والمدسى[٢].

إذن ما حقيقة النفس؟!

ذكرت كتب اللغة والمعاجم أن النفس: الدم، وذلك أنه إذا فُقِد الدم من بدن الإنسان فقد نفسه، وفى الأساس: قولهم دفق نفسه من المجاز، كما تطلق على العين مراداً بها الحسد، يقال: أصابت فلاناً نفسٌ، وهذا أيضاً من المجاز[٣].

ويذكر د/ شوقى ضيف

أن بعض المفسرين فرّق بين النفس والروح، ففى الإنسان نفساً، وجسداً، وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس هى التى بها العقل والتمييز، والروح هى التى بها الحياة والأنفاس والحركة.

ثم يقول: والصحيح أن النفس والروح شئ واحد. وتشهد بذلك الآثار

---

(١) تفسير البحر المحيط م ٤٨١/٨.
(٢) الكشاف ٢١٥/٤، والبحر المحيط م ٤٨١/٨، التحرير والتنوير ٣٦٨/٣٠.
(٣) مقاييس اللغة ٤٦٠/٥، أساس البلاغة ٢٩٢/٢.

الصحاح، من ذلك حديث **أمِّ المؤمنين أم سَلمة إذ قالت: قال رسول الله (ﷺ): "إن الروح إذا قُبضَ تبعه البصر"**(١). يشير إلى أن بصر الميت يشخص حين تخرج روحه منه وكأنما يتبع بصره روحَه. **وعن أبى هريرة قال رسول الله (ﷺ) "تحضر الملائكة عند الموت، فإذن كان الرجل صالحاً قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأبْشرى بَروْح ورَيحْان وربٍّ راضٍ غير غضبان، فلا يزال يُقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء"**(٢). والنفس لطيفة ربانية لا علم لأحد بسرّها مع معاشرتنا لها طوال حياتنا ودوام المرافقة والصحبة فى اليقظة والمنام، ومع ذلك لم يصل أحد إلى معرفة كنهها وحقيقتها، فقد استأثر الله بمعرفة ذلك لنفسه فيقول جل شأنه فى سورة الإسراء: "**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العِلمْ إلا قليلاً**". وقال الغزالى فى الإحياء: الروح فى الآية هى النفس الناطقة، وهى اللطيفة الربانية التى لا تفنى بفناء البدن، وتبقى بعد الموت، والله يقول إنها مما استأثر لنفسه بعلمه من الأسرار الخفية. ويقول ما معناه إن هذه الروح روحانية، وهناك روح حيوانية وهى التى تفنى بفناء البدن ومركزها القلب، وهى التى تبعث فى الجسم قواه من الحياة ومن الحواس والطاقات الجسمانية وهى تنتشر فى الجسد بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن،

(١) رواه مسلم جنائز ٧ ، وابن ماجه جنائز ٦، ابن حنبل ٣٩٨/٢ ، ٤٣٥ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.

(٢) رواه ابن ماجه زهد ٣١، ابن حنبل ٣٦٤/٢، ١٤٠/٦ المرجع السابق.

وهى التى تبعث الحياة فى الجسم على نحو ما يبعث السراج النور فى البيت(١).

وهكذا .. فذكر التسوية للنفس فى الآية يوضح المراد من النفس، ويحدد الاتجاه الذى ينبغى التدبر فيه، إذ هو مناط الربط بينه وبين الكون وما فيه. ولذلك أرجح أن المراد بالنفس فى الآية هى الذات الإنسانية، وتسويتها أى تسوية خلقها على هذه الصورة البديعة من تكامل الأعضاء بل تكامل كل عضو فى ذاته وتهيأته لأداء واجبه فى الحياة على الوجه الصحيح. وهو أمر شديد الدقة بالغ التعقيد والروعة. لابد أن يؤدى بمتأمله إلى الاعتراف بوحدانية الخالق، وبديع صنعه.

فالتسوية تكون على حقيقتها فى المحسوس (الذات). يقول الرازى: "إن حملنا النفس على الجسد فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح"(٢).

أما إذا أريد من النفس (الروح) فالتسوية مجازية (استعارة بالكناية) لوقوعها فى المعقول. يقول الرازى: "وإن حملناها على القوة المدبرة فتسويتها إعطاؤها القوى الكثيرة، كالقوة السامعة والباصرة والمخيلة والمفكرة والمذكورة على ما يشهد به علم النفس(٣).

---

(١) سورة الرحمن وسور قصار (عرض ودراسة) ص ٢٥٢، ٢٥٣ د/ شوقى ضيق ط الثالثة/ دار المعارف.
(٢) التفسير الكبير ١٩١/٣١.
(٣) المرجع السابق.

ولما ذكر النفس وتسويتها على هذه الهيئة الحسية أو العقلية ذكر ما يكون عليه التوجيه فى الحياة وهو الخير والشر فقال تعالى: "**فألهمها فجورها وتقواها**".

والإلهام إلزام وهو أن يوقع الله فى قلب العبد شيئاً وإذا أوقع فى قلبه شيئاً فقد ألزمه إياه(١).

وأصل الإلهام: لهَم ، وهو أصل صحيح يدل على ابتلاع شئ. تقول العرب: التهم الشئ: التقمه. ومنه الإلهام كأنه شئ أُلقِى فى الرُّوع فالتهمه. يقال: ألهمه الله الخير: ألقاه فى روعه(٢).

وإلهام النفس هذين المتطابقين (الفجور، والتقوى) يدل على تعريفها كل منهما معرفة جيدة، ثم ترك لها الاختيار. ففى البحر: عرفها وجعل لها قوة يصح معها اكتساب الفجور، واكتساب التقوى. وذكر الزجاج أن المراد وفقها للتقوى، وألهمها فجورها أى خذلها(٣).

وفى سبب تقديم الفجور على التقوى ذكر البقاعى: أنه لما كان الفجور أقرب للنفس البشرية من التقوى، ولما كان الآدمى يقدم طائعاً على ما يضره وهو يعلم بل ويقاتل من منعه، ولما كان تذوق الفجور أشهى بينما تذوق التقوى أصعب وأمرّ. قدم إلهام الفجور على التقوى تأكيداً لهذا الميل الطبعى فى النفس الإنسانية(٤).

---

(١) المرجع السابق.
(٢) مقاييس اللغة ٢١٧/٥، وأساس البلاغة مادة لهم ١٨٧/٢.
(٣) البحر المحيط ٤٨١/٨.
(٤) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ٤٤٠/٣٠.

أما ابن عاشور فذكر أن تقديم الفجور فى الآية مراعاة لأحوال المخاطبين بهذه السورة، وهم المشركون وأكثر أعمالهم فجور. ولا تقوى لهم. والتقوى صفة أعمال المسلمين وهم قليل يومئذ(١).

– وأرى أن توجيه البقاعي أقرب للنفس من توجيه ابن عاشور، ولايمنع أن يكون مع توجيه البقاعي مراعاة لأحوال المخاطبين، لميلهم الطبيعي إلى القصور.

والفجور: الانبعاث والتفتح فى المعاصى، ولذلك سمى الكذب فجور(٢)، والتقوى ضد الفجور من وقِى وهى كلمة تدل فىَ أصلها على دفع شئ عن شئ بغيره(٣). فكأن المتلقى يدفع عن نفسه الفجور بإلتزامه بطاعة الله واتباع أوامره، فالطاعة وقاية بينه وبين الفجور تمنعه من الاندفاع فيه.

ولما كان من المعلوم أن من سمع هذا الكلام يعلم أن التقوى لا يكون إلا مأموراً بها، والفجور لا يكون إلا منهياً عنه، فيتوقع ما يقال فيهما مما يتأثر عنهما(٤) قال تعالى: **"قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها"**.

قال الزجاج وغيره هذا جواب القسم، وحذفت اللام لطول الكلام والتقدير (لقد أفلح) (٥).وقيل الجواب محذوف تقديره لتبعثن، وقال الزمخشرى تقديره:

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٧٠.
(٢) مقاييس اللغة ٤/٤٧٥.
(٣) مقاييس اللغة ٦/١٣١.
(٤) نظم الدرر ٣٠/٤٤١.
(٥) البحر المحيط ٨/٤٨١، روح المعانى ١٨/٥٢٦.

ليدمدمنّ الله عليهم أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله (ﷺ) كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحاً، وأما قد أفلح من زكاها فكلام تابع لقوله فألهمها فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم فى شئ[١].

والراجح: أن قوله تعالى "**قد أفلح** ....." جواب القسم، وحذفت اللام لطول الكلام.

و(قد) إما للتوقع[٢]، بإعتبار أن الفلاح مما يتوقع وقوعه لمن ذكى نفسه، ودخولها على الماضى لإفادة تحقق الوقوع.

وإما للتحقيق[٣]، ويكون التأكيد فى الخبر من ثلاثة أوجه: **الأول:** اللام المحذوفة فى جواب القسم، **الثانى:** التعبير بقد، **الثالث:** التعبير بالماضى. والمراد بالفلاح: الفوز والظفر بما وعد الرحمن عباده الصالحين فى الآخره. أما التزكية فهو تطهير النفس من النقائص والآثام، وزيادتها من الخير والأعمال الصالحة والعلوم النافعة.

ولما أكد الفلاح لمن زكى نفسه وطهرها وزادها من الخير، وصلها بخبر مؤكد لمن فعل عكس ذلك مكرراً الحرف (قد) فقال تعلى: "وقد خاب من دساها". لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمون الخير، والإيذان بتعلق القسم به اصالة[٤].

---

(١) البحر المحيط ٤٨١/٨، الكشاف ٢١٦/٤.
(٢) اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص١٠٠، ومغنى اللبيب ١٩٤/١.
(٣) مغنى اللبيب ١٩٧/١.
(٤) روح المعانى ٥٢٦/١٨.

وطابق النظم القرآني الفلاح بالخيبة، والتزكية بالتدسية كما طابق أولاً التقوى بالفجور، فأظهرت هذه المتقابلات المعنى مصوراً مجسماً، فضلاً عن الموسيقى الداخلية التى أحدثتها الألفاظ المتطابقة، والتى تجذب انتباه السامع للإصغاء والتدبر.

والخيبة: عدم الفائدة أو عدم فائدة الخير.

وأصل دساها فى كتب اللغة: دسوٌ يقال دَسَوْتُ الشئ أدْسُوه، ودسا يدسُو بمعنى الخفاء والستر(١).

وفى كتب التفسير: أصله دسسها من التدسيس، وهو إخفاء الشئ فى الشئ أو هو النقص والإخفاء بالفجور. فأبدلت إحدى السينات ياء، فأصل دسى دسس(٢).

وفاعل (زكى، ودسى) ضمير يعود على (مَن). ويجوز أن يكون ضمير الله تعالى، وعاد المضير مؤنثاً باعتبار المعنى من مراعاة التأنيث. وفى الحديث ما يشهد لهذا التأويل حيث كان – عليه السلام – إذا قرأ هذه الآية قال: "اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها"(٣).

ولمناسبة التقوى (وهى أقرب مذكور) قدم الفلاح على الخيبة، ثم أردف بخيبة من دسى نفسه، تهيئة للانتقال إلى الموعظة بما لحق بثمود من عقاب على ما

(١) مقاييس اللغة ٢/٢٧٧.
(٢) التفسير الكبير ٣١/١٩٣، الكشاف ٤/٢١٥.
(٣) البحر المحيط ٨/٤٨١، روح المعانى ١٨/١٢٦.

هو أثر التدسية[١]. فقال تعالى دالاً على خيبة المدسى، ليعتبر به من سمع خبره لا سيما إن كان يعرف أثره:

"كذبت ثمود بطغواها".

جملة خبرية استئنافية استئنافاً بيانياً لما قبلها، لتقرير مضمونها، وتمثيل لمن أضاع نفسه، والتزم الفجور، وهو عرض للمواجهة الضالة التى اتجه إليها أهل الضلال مؤثرين إياها على طريق الحق والهدى، فلم يزكوا أنفسهم، ولم يرتفعوا بالجانب الطيب المشرق منها، بل آثروا جانب الفجور، وأفردوا قلوع سفينتهم فى اتجاه ريحه العاصفة[٢].

"وثمود" هم قوم صالح – عليه السلام – دعاهم نبيهم إلى الإيمان بالله فبهتوه، وكذبوه .. **"قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا .. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا، وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب"**. هود ٦٢

وقد توعدهم نبيهم بالعذاب، وأنذرهم به، ووضع بين أيديهم آية من آيات الله هى الناقة، وجعل وقوع العذاب الذى أنذروا به رهناً بأن يتعرضوا لتلك الناقة بسوء: **"ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب، فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب[٣]"** هود ٦٤، ٦٥

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٧١.
(٢) تفسير أبو السعود ٥/ ٢٦٦ والتفسير القرآنى للقرآن م ١٥٨٦/٨ عبد الكريم الخطيب.
(٣) التفسير القرآنى للقرآن م ١٥٨٦/٨، ١٥٨٧ وانظر قصص الأنبياء لابن كثير.

ولبيان سبب تكذيبهم برسول الله وبآيات الله استخدم النص القرآني باء السببية موصولة بالطغيان، فقال تعالى: "بطغواها" أى بسبب طغيانها، ويجوز أن تكون الباب صلة للتكذيب.

قال ابن مسعود: والباء للسببية أى فعلت التكذيب بسبب طغيانها كما تقول ظلمنى بجرأته على الله تعالى، أو صلة للتكذيب أى كذبت بما أوعدت به من العذاب ذى الطغوى كقوله تعالى فأهلكوا بالطاغية[١].

والطغيان مجاوزة الحد فى العدوان على حرمات الله، والفعل هنا مستخدم فى حقيقته ليجسد كيف يبلغ التحير والتعالى بالإنسان إلى الحد الذى يعصى فيه الله ورسوله، مما يعرضهم إلى الهلاك والدمار ربما على صورة أروع وأفظع من صورة تجبرهم وتكبرهم وعنادهم.

ويبدأ النظم القرآن فى سرد أحداث قصة تكذيبهم وطغيانهم، وقد تحقق هذا الطغيان بالفعل فى قوله تعالى: "**إذا انبعث أشقاها**" أى حين اندفع أشد بنى ثمود شقاء ليشارك فى الكفر والطغيان، اندفع بجنون صارخ نحو الناقة لعقرها وهو قدار بن سالف، وقيل هو أو هو ومن والاه على عقرها، لأن صيغة أفعل التفضيل إذا أضيفت صلحت للواحد والجمع وللمذكر والمؤنث[٢].

وأصل البعث الإثارة[٣]. فكأن هذا الشقى استثير بفعل شيطانه، فقرر عقر الناقة كما أثار الحمية فى قومه وروح الغضب فرضوا عن جنونه وفعله فيها.

(١) تفسير أبو السعود ٢٦٦/٥.
(٢) نظم الدرر ٤٤٢/٣، وإرشاد العقل السليم ج ٢٦٦/٥..
(٣) مقاييس اللغة ٢٦٦/١.

فكان هو أشقاهم لمباشرته العقر الفعلى مع اشتراك الكل فى الرضا به.

"فقال لهم" الفاء للسببية، أى بسبب الانبعاث الذى صدر منه "**قال لهم رسول الله**" هو صالح – عليه السلام – واظهار لفظه إشارة إلى وجوب طاعته، وعظيم فعلهم. وإضافة الرسول إلى لفظ الجلالة تشريف له – عليه السلام – وتعظيم فعلهم، وما أدى بهم بعد ذلك من نهاية مروعة.

قال أبو السعود: عبر عنه بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته، وبياناً لغاية عتوهم، وتماديهم فى الطغيان، وهو السر فى إضافة الناقة إلى الله تعالى فى قوله: "ناقة الله"[١] وقد نصبت على التحذير، فى جملة إنشائية غير طلبية.

ذكر الآلوسى: أن الكلام على حذف مضاف، أى احذروا عقر ناقة الله، وسقياها: اسم مصدر من سَقىَ، أى واحذروا سقياها، فلا تتعرضوا بمنعها عنها فى نوبتها، وَلا تستأثروا بها عليها[٢] (وقد كان لها شرب يوم ولهم ولمواشيهم شرب يوم، وكانوا يتضررون بذلك فى أمر مواشيهم فهموا بعقرها.

"وكان صالح – عليه السلام – يحذرهم مراراً من عذاب ينزل بهم إن أقدموا على ذلك، وكانت هذه الحالة مقصورة فى نفوسهم، فاقتصر على أن قال لهم (ناقة الله وسقياها)؛ لأن هذه الإشارة كافية مع الأمور المتقدمة"[٣].

"**فكذبوه فعقروها**" جملة خبرية عطفت بالفاء على جملة "فقال لهم"، كما حكى عنه بقوله تعالى: "ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم" .. وقد جوز أن

(١) ارشاد العقل السليم ٢٦٦/٥.
(٢) روح المعانى ٥٢٩/١٨، والتحرير والتنوير ٣٧٤/٣٠.
(٣) التفسير الكبير ١٩٥/٣١.

يكون ضمير لهم للأشقين، ولا يلائمه ذكر سقياها (فعقروها) أى الأشقى والجمع على تقدير وحدته لرضا الكل بفعله.

وقال قتاده: بلغنا أنه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، وقال الفراء: عقرها اثنان، والعرب تقول هذان أفضل الناس(١).

فقوله: "فعقروها" مجاز عقلي حيث أسند الفعل للجميع مجازاً وهو لآحدهم حقيقة، وهذا بيان وتفصيل للطريق الذى اتخذوه للتكذيب.

والعقر: الجرح وهو جرح البعير فى يديه ليبرك على الأرض من الألم فينحر فى لبته، وهو كناية مشهورة عن النحر لتلازمهما(٢).

وهكذا تأتى النتيجة (نتيجة تكذيب الرسول، وعقر الناقة) للتدبر والاعتبار: قال تعالى" **فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها**".

أى بسبب هذا الجرم العظيم، الذى فعلوه أخذهم الله جميعا بالعذاب فلم يبق منهم باقية.

والدمدمة: الإهلاك الجماعى الذى لا يبقى ولا يذر(٣).

فسواها: تفصيل دقيق لما صار إليه حالهم بعد الدمدمة، حيث سُووا بالأرض، فلم يبق لهم ولا لديارهم أثر. كأن لم يكن عليها حياة، ولإفادة اختصاصهم بالهلاك دون سواهم من الأقوام الأخرى من حولهم. قدم الجار والمجرور "عليهم".

ثم أراد النظم القرآنى أن يبين أن ما صدر من الله تعالى - رداً على تكذيب

(١) ارشاد العقل السليم ٧/
(٢) مقاييس اللغة ٩٠/٤، والتحرير والتنوير ٣٧٤/٣٠.
(٣) مقاييس اللغة ٢٦٠/٢ والتفسير القرآنى للقرآن م ١٥٨٨/٨، وقد فصل الرازى القول فى الدمدمة فذكر لها عدة أوجه ١٩٦/١٩٥/٣١.

ثمود وعقرهم الناقة – إنما هو عن عدل وحكمة بالغة،ومستمرة لا يخاف عاقبتها وتبعتها كما يخاف المعاقبون من الملوك عاقبة ما يفعلونه وتبعته.فعبر بالمضارع "يخاف" بعد التعبير بالماضي في "دمدم – ..سوى".

يقول الآلوسى:

وهذه استعارة تمثيلية لإهانتهم، وأنهم أذلاء عند الله جل جلاله. والواو للحال أو للاستئناف، وجوز أن يكون ضمير لا يخاف للرسول، والواو للاستئناف لا غير على ما هو الظاهر أى ولا يخاف الرسول عقبى هذه الفعلة بهم، إذ كان قد أنذرهم وحذرهم(١).

وهكذا لاحظنا أن ما تنطوى عليه سورة الشمس – من أولها إلى آخرها – من إشارات، ودلالات تدعو للتأمل والتفكر، واتخاذ العبرة والعظة، والرجوع إلى الحق، والتزام التقوى.

وقد ذكر بعض أهل البصائر: أن الشمس إشارة إلى ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى، وضحاها اشارة إلى الحقيقة المحمدية، والقمر إشارة إلى ماهية الممكن المستفيدة للوجود من شمس الذات، والنهار إشارة إلى العالم بسائر أنواعه، الذى ظهرت به صفات جمال الذات وجلاله وكماله، والليل إشارة إلى وجود ما يشاهد من أنواع الممكنات الساتر فى أعين المحجوبين للوجود الحق. والسماء إشارة إلى عالم العقل، والأرض إشارة إلى عالم الجسم، والنفس معلومة، وناقة الله إشارة إلى راحلة الشوق الموصولة إليه سبحانه، وسقياها إشارة إلى مشربها من عين الذكر والفكر(٢).

(١) روح المعانى ٥٣١/١٨.
(٢) المرجع السابق

وهكذا يسرد الآلوسى وغيره من المفسرين العديد من الإشارات المحتملة، وكلها تشارك فى الدعوة إلى التدبر فى الكون، وفى أنفسنا والعلاقة بينهما. والله أعلم.

وبهذا ينتهي البحث في سورة الشمس والتي لعب من خلالها البديع دوراً بارزاً فى تجسيد المعانى، وإبرازها للمتلقى حيث قام الطباق والمقابلة فى السورة بأكبر الدور فى ذلك، كما ظهر السجع القصير الذى يدل على البراعة والدقة، وأخيراً يظهر اعجاز النظم القرآنى فى ألفاظ السورة من أولها فى حسن الابتداء وسطها فى حسن التخلص الذى يحتاج إلى قوة التركيز لاستدعاء الروابط بين وسط السورة وأولها وآخرها، ثم حسن الانتهاء الذى يدعو إلى اتخاذ العبرة والعظة من كل ما سبق.

هذا فضلاً عما أدت إليه الجمل الخبرية والإنشائية المؤكدة وغير المؤكدة من إفادة الخبر وإرسال الحجة قوية لقهر المشركين والمنكرين بالدليل القاطع، والبرهان الساطع.

وعلى الله قصد السبيل

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د/ عزة أحمد مهدى

قسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

بالإسكندرية

مصادر البحث ومراجعه

بعد القرآن الكريم

١ – الإتقان فى علوم القرآن – السيوطى ت ٩١١هـ – دار الندوة الجديدة – بيروت/ لبنان.

٢– أساس البلاغة – الزمخشرى – تحقيق محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية بيروت/ لبنان.

٣ – الإعجاز العلمى فى الإسلام – محمد كامل عبد الصمد – الدار المصرية اللبنانية ط الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٤ – الإعجاز فى تفسير القرآن د/ عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ.

٥– الإعجاز القرآنى فى كونيات الزراعة – د/ صلاح الدين سيد أبو العلا – مؤسسة دار الشعب ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

٦ – إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم – أبى عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه ت ٣٧٠هـ – مكتبة المتنبى – القاهرة.

٧ – البيان فى غريب إعراب القرآن – أبو البركات بن الأنبارى تحقيق د/ طه عبد الحميد – مراجعة مصطفى السقا. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٨ – تأملات فى خلق السماوات والأرض د/ أشرف فوزى – كلية العلوم جامعة الزقازيق / دار الكتاب الحديث.

٩ – تفسير أبو السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم.المطبعة المصرية – ط الأولى.

١٠– تفسير البحر المحيط.لبي حيان الأندلسي – طبعة جديدة بعناية الشيخ عرفان العشاحسونة طـ دار الفكر.

١١– تفسير البيضاوى. المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل – للبيضاوي ت ٧٩١ – تحقيق أ.د. حمزة النشرتي – مكتبة النشرتي.

١٢– تفسير التحرير والتنوير.للأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر عاشور – الدار التونسية للنشر ١٩٨٤.

١٣– تفسير روح المعانى.للآلوسي البغدادي ت ١٢٧ – دار الغد العربي.

١٤– التفسير القرآنى للقرآن – عبد الكريم الخطيب – دار الفكر العربى.

١٥– التفسير الكبير ومفاتيح الغيب – الفخر الرازى. دار إحياء التراث.

١٦– تفسير الكشاف – الزمخشرى – ط دار المعرفة بيروت / لبنان.

١٧– دار معارف القرن العشرين – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٨– الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون – أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبى – تحقيق د/ أحمد محمد الخراط – ط الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

١٩- رؤية ميسرة عن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والتفسير العلمى لبعض آياته - د/ جمال حسن استشارى الأمراض الصدرية والباطنية. مراجعة مدير عام أوقاف بنى سويف الشيخ اسماعيل على عبد ربه - ١٠ رمضان ١٤٢٠هـ - ١٨ ديسمبر ١٩٩٩م.

٢٠- سورة الرحمن وسور قصار - د/ شوقى ضيف دار المعارف ط الثالثة.

٢١- فى ظلال القرآن - سيد قطب.

٢٢- القرآن محاولة لفهم عصرى - د/ مصطفى محمود.

٢٣- القسم فى القرآن. د/ حسين نصار - مكتبة الثقافة الدينية ط الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

٢٤- قسس الأنبياء - ابن كثير الدمشقى ٠- مكتبة أيوب - كانور نيجيريا.

٢٥- الكتاب - سيبويه.

٢٦- الكون والإعجاز العلمى - د/ منصور محمد حسب النبى - دار الفكر العربى ط الثالثة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٢٧- لسان العرب - ابن منظور.

٢٨- مظاهر كونيه فى معالم قرآنية - محمد محمود عبد الله - مدر علوم القرآن بالأزهر - مؤسسة الخليج للطباعة والنشر.

٢٩- مع الله فى السماء - أحمد زكى حسين.

﴿ ١١٣٠ ﴾

٣٠- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب - ابن هشام الأنصارى - المكتبة العصرية.

٣١- مقاييس اللغة - ابن فارس - تحقيق عبد السلام محمد هارون - مصطفى الحلبى.

٣٢- من دلائل الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة النبوية - د/ موسى الخطيب - مؤسسة الخليج العربى.

٣٣- نظم الدرر فى تناسب االآيات والسور - البقاعى.

٣٤- النظم الفنى فى القرآن - للشيخ عبد المتعال الصعيدى - مكتبة الآداب.

تم بحمد الله